فكرة الزمان عند الصوفية

د. محمد قريبيز*

يتناول هذا البحث مفهوم الزمن عند الصوفية، بعد أن لاحظنا أنهم لا يستوعبون منه إلا بعدا واحدا هو اللحظة الحاضرة (الآن) دونما أي اعتبار للماضي أو المستقبل فما شأن هذه اللحظة يا ترى ؟ إنها اللحظة التي تشتمل على شيء من الماضي وشيء من المستقبل، إذ الحاضر في ذاته شبيه بنقطة تفرض في محيط دائرة هندسية فتعين لها المبدأ والغاية حيث فرضتها منها فتصبح اللحظة حدا لما مضى، ولما يأتي في الزمان فهي بهذا المعنى لحظة تختزل الماضي والمستقبل معا.

إن استدعاء الماضي هو من قبيل الحافز للمزيد من تكثيف اللحظة الحاضرة وليس نكوصا أو تأسفا عليه أما تجاوزهم للّحظة صوب المستقبل فهو على سبيل الحلم بالغد المطلق (الزمن الآخر).

الماضي المجيد لديهم هو ماض الأزل أيان كانت النفس ترفل في ابتهاج بعيدا عن كدر الإحساس والمشاهدة.

والتشوّف للمستقبل باعتباره تمثلا للزمن الآخر حيث التجلي والتدلي. ويلوح أن تجاهلهم للماضي والمستقبل المقيدين، ينطوي على حيلة لطيفة مفادها التركيز على اللحظة الراهنة لتتحرر النفس من قيد الزمن الخارجي إلى حيث اللازمن.

* عضو المجلس الإسلامي الأعلى وشيخ الزاوية الرحمانية بطولقة (بسكرة).

لقد حطم الصوفية ما تواضع عليه الفلكيون من تقسيم الزمان إلى آناء من الليل والنهار، وإلى الأمس واليوم والغد، وإلى ساعات ودقائق ولحظات، ولم يأخذوا بما اصطلح عليه النحويون من تقسيمهم للزمان إلى فعل ماضي وحاضر وأمر، إنهم يعيشون مسيرين لا مخيرين خاضعين لقدر لامحيص لهم منه إلا بحسب ما يمضيه الله فيهم لا بما يختارونه بأنفسهم فأضحى الزمن التعاقبي زمناً متوهم الوجود لا موجوداً والخلق المزعوم ظل لا حقيقة له إلا بما يفيض على الظل من صاحب الظل"[1] سندهم في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى[2]﴾ أو الأثر القائل: أصدق ما قالت العرب قول لبيد: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[3] نجد هذه الأفكار مبثوثة في أقوال ابن عربي كقوله: " فيكون الزمان للممكن نسبة متوهمة الوجود لا موجودة لأن كل شيء تفرضه يصح عنه السؤال بمتى؟ ومتى سؤال عن الزمان، فلا بد أن يكون الزمان أمرا متوهما لا موجودا"[4].

كما استخدم ابن عربي الزمن بمعنى الخضوع والتسليم لما يرد على العبد من الحق حول هذا المعنى يقول: " فإذا علم العبد ذلك وسلم الحكم فيه لله واستسلم وكان بحكم وقت ما يمضيه الله فيه لا بحكم ما يختاره لنفسه"[5].

وعلى هذا المنوال يحض السالك أن تكون أوقاته كلها موافقة للشرع بقوله: "فالوقت المعلوم من جانب الحق، هو عين ما خاطبك به الشرع في الحال، فكن بحسب قول الشارع في كل حال تكن صاحب وقت"[6].

غير أن الصوفية المتفلسفين في القرن السابع الهجري تكلموا عن ارتباط الوقت بالوجود وأنكروا القبلية والبعدية اللتين وإن كانتا تدلان على تصورات زمنية بالنسبة للمخلوقات غير أنهما لا زمنيتان في حق الله، حول هذا المعنى يؤكد الصوفي عبد الكريم الجيلي بقوله:" فلا وقت سوى الأزل، الذي هو الأبد،

---

1. ابن عربي، فصوص الحكم، ط/2، 1980، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق أبو العلا عفيفي، ص35. ـ 2. الأنفال الآية، 17. ـ 3. أورده ابن عربي في الفتوحات المكية دار صادر، بيروت، 502/2- 4. المصدر نفسه، 290/2. ـ 5. ابن عربي، الفتوحات المكية، 539/2 ـ 6. المصدر نفسه، 539/2

الذي هو حكم وجوده باعتبار عدم مرور وقت الزمن عليه"[1] ويزيد الموضوع بسطا بقوله: وأعلم أن البعدية والقبلية لله تعالى، حكمان في حقه لا زمنيان لاستحالة مرور الزمن عليه"[2].

وعلى الجملة فرأيهم أن الزمن ليس له بداية ولا نهاية بل يطلقون لفظ الوقت بالترادف مع الحق تعالى وكأني بهم استصغروا الزمن بالنظر إلى الأبد واللانهاية في حنينهم الدائب إلى السرمدي المطلق حين قال قائلهم: "وانصرفت الجملة إلى الله واستغرقت الأزمنة فيه بالجملة"[3].

كما يتضمن إنكار حقيقة الزمن عندهم إنكارهم أيضا لتقسيم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل، يتبين ذلك من خلال قول ابن عربي: "الزمن أمر متوهم ممتد لا طرفين له، فنحكم عليه بالماضي لما مضى فيه ونحكم عليه بالمستقبل لما يأتي فيه ونحكم عليه بالحال لما هو فيه وهو المسمى الآن"[4].

وهذا يعني فيما يعنيه أن الصوفي عليه أن يحيا حاضره باستمرار وأن يغتنم اللحظة، أي لحظة الاقتراب من اللحظة العليا وأن يغرق فيها، نافيا وجود الماضي والمستقبل لأنه ببساطة ليس له عليهما سلطان فالأول انقضى وفات والثاني آت تفويض الأمر فيه لله تعالى، ولعل هذا ما عناه ابن عربي بقوله: " والآن وإن كان زمان، فهو حدّ لما مضى في الزمان ولما يستقبل في الزمان، كالنقطة تفرض في محيط الدائرة، فتعين لها المبدأ والغاية، حيث فرضتها منها"[5] إنه اعتراف باللحظة الحاضرة أي حضور القلب مع الله إنها الآن الدائم بالنسبة إلى الله تعالى:" فالأزل والأبد عدَم طرفي الزمان، فلا أول له ولا آخر، والدوام له وهو زمن الحال"[6]، وهكذا يخرج الصوفي من دائرة الزمن الآلي برتابته وانغلاقه ليدخل في الوقت الروحي باتساعه ورحابته.

---

1. عبد الكريم الجلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الفكر بيروت 62/1 ـ 2. المصدر نفسه،ص،61/1 ـ 3. أبو الوفا التفتزاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، 1973، دار الكتاب اللبناني بيروت،ص، 115 ـ 4. ابن عربي، الفتوحات المكية 546/3 ـ 5. المصدر نفسه، ص546/3 ـ 6. المصدر نفسه، ص546/3.

لقد كان لهذه النظرة انعكاسات في الأخلاق أو السلوك منها: ضرورة اغتنام فرص الزمن الخارجي الموضوعي في المسارعة بالاشتغال بالطاعات دون تسويف يقول ابن سبعين:" يا هذا: هل عمرك إلاّ كلمح أو عطاء كمد لا سمح ؟!! وآصائلك لهو وعلل وأسحارك سهو وعلل"[1] ويحلل الششتري ما أغمضه شيخه بقوله:"ولما كان الماضي من الأحوال التي يخبر عنها العبد من وقته إلى أول أمره غير حاصل له في الحالة الراهنة، وكل ما تقدم من خير وشر قد ذهب، والمستقبل كذلك غير حاصل ولا معتبر في تلك الحالة بعينها، فلم يعتبر وجود حال إلا الحاصل القائم بك في الزمن الفرد الذي أنت فيه على ما أنت عليه"[2].

وبالنظر إلى حياة الصوفية الباطنية المبنية أساسا على منهج الاستبطان والتأمل الذاتي بمعنى تأمل السالك لنفسه بنفسه باطنيا في إدراكه لمرور الوقت والشعور به وجدانيا و توفيته حقه في اللحظة الحاضرة أثناء المجاهدة والمحاسبة والمراقبة، و الترقي في الأحوال و المقامات، قلت على الرغم من خصوصية التجربة فإننا سنحاول قدر الإمكان مشاركتهم بعض أذواقهم وإن كنا نقر سلفا بصعوبة ذلك لأننا لم نشاطرهم تلك التجارب الروحية الباطنية، غير أن ثمة اعتبارات ينبغي الإشارة إليها في هذه العجالة وهي تدخل في صميم التجربة الروحية والتي منها :

1- نجد الصوفي يشعر أحيانا بالزمان الطبيعي حين يفرض على نفسه أوقاتا يخصصها للأوراد والعبادات، وإن كانت الأوقات في الزمن الطبيعي واحدة غير أن الصوفية يفضلون بعضها على بعض لسر قام فيها.

2- قد يشعر باختلاف الزمن الشعوري عليه حين ينكفئ إلى حرم ذاته منصرفا عن العالم الخارجي فيشير وقتئذ بتوالي أحواله النفسية واختلاف الزمن

---

1. القشاني، كشف الوجوه الغر لنظم الدر 1310 القاهرة، ص،142- وهكذا وردت ولعل صوابها سهو وخلل. ـ 2. رسائل ابن سبعين عبد الحق، رسالة العهد، تحقيق عبد الرحمن بدوي الدار المصرية للتأليف والنشر، ص، 45.

عليه فهو يتقاصر بسرعة البرق عند انبساطه في حضرة الأنس، ويتطاول عند الوحشة والانفصال، وللصوفية في هذه الحال مذاهب فهذا الجنيد عندما ينظر في ذاته يميز بين حالين: حال الوجد الخاطفة وحال الفناء بشهود الحق الذي يلي حال الوجد بقوله:

الوجد يؤنـــس من بالوجد راحتـــه   والوجد عند شهود الحق مفقود[1]

قد كان يوحشني وجدي ويؤنسني   لرؤية الوجد من بالوجد موجود

وهو يشير إلى فاصلة كافية من الزمن للتفريق بين الوحشة والأنس وفي كلتا الحالتين فهو يستوحش بالوجد مهما تقاصر لأنه يفصله عن مشاهدة محبوبه، ويأنس بالفناء لأنه فناء عن شهود السّوى، هذا على خلاف غيره من الصوفية الذين يخفون لمجرد رؤية الوجد.

3- وأحيانا أخرى قد لا يشعر فيه بالزمنين الطبيعي ولا النفسي حين يقع الصوفي نهبا لحال الفناء وعندها ينتفي شعوره بالآنية حيث اضمحلال الرسم الذي يفقد معه الإحساس بالزمان.

قد يترتب عن هذا استعدادات نفسية مرتبطة بالوقت نبه إليها ابن عربي بقوله:" فالوقت على الحقيقة ما أنت به هو عين استعدادك"[2] وعلى قدر الاستعداد يكون الإمداد الالهي، حالة نفسية ينبغي التجلد في إخفائها لما في البوح بها من كدر يعكر صفوها كما يقول القائل:

نبه على السر ولا تفشـــــه   فالبوح بالسـر لــه مقت[3]

على الذي يبديه فاصـبر له   واكتمه حتى يصـل الوقت

---

1. السلمي، طبقات الصوفية، 1953، مكتبة الخانجي القاهرة تحقيق نور الدين شريبة، ترجمة الجنيد، والأبيات تنتسب للحلاج أيضا. ـ 2. ابن عربي الفتوحات، 538/2. ـ 3. المقري، نفح الطيب 1949 ط/1، تحقيق محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر 184/2.

ويرى الأستاذ أبو العلا عفيفي أن الاستعداد للوقت هو اللحظة التي يكون فيها الصوفي حاضرا بقلبه مع الله ويدرك فيها ناحية من نواحي استعداده الروحي وهي التي يسميها الصوفية بالوقت[1].

وقد يصاحب لحظة الاستعداد النفسي للمتصوف القلق النفسي ويسمى لديهم بانزعاج الخاطر وإذا حدث يرحب به الصوفية لأنه من الأسباب التي تدفع المريد إلى المزيد من الأعمال التي يصفو بها وقته وتتزاح عنه حظوظ نفسه إذ هو قلق يصفي الوقت وينفي النعت"[2]

وصفاء الوقت يسقط معه التلوين وتنهض به صفات الثبات والتمكين وهو وقت الاستقرار النفسي، أما القلق من الوقت عند الإنسان عامة فمنشؤه الشعور باستحالة عودته مرة ثانية فيتولد عنه في النفس وحشة، ولم يغب هذا المعنى عن أبي طالب المكي حين قال: "الوقت إذا انقضى فقد ولم يوجد إلى يوم القضاء، والساعة إذا مرت طويت ولم تنشر إلى يوم النشور وإنما ينشر مثلها ويخلق شبهها"[3].

كما قد يصاحب الاستعداد النفسي للمتصوف الهمّ والحزن ويرى بعض الصوفية أنهما رديفان لأن كلا منهما ينتج عن مكروه يَرد على القلب ويفرقون بينهما أيضا على أساس: إذا كان المكروه آت فيما يستقبل من الزمن نتج عنه الهم، وإن كان مبعثه ما مضى صدر عنه الحزن.

والحزن قد يؤدي إلى هدر الأوقات بخلوها من العبادات والطاعات وبالتالي يقطع حلاوة الإيمان والأنس بالله ولعلّ هذا ما نبه إليه الهروي بقوله "حزن على التفريط في الخدمة وعلى التورط في الجفاء وعلى ضياع الأيام"[4].

1. ابن عربي، فصوص الحكم، 21/2 ـ 2. الكمشخانلي، جامع الأصول، 1328هـ، القاهرة،ص،337 ـ 3. المكي أبوطالب، قوت القلوب في معاملة المحبوب 1306هـ، دار صادر، بيروت، ص108 ـ 4. ابن القيم، مدارج السالكين، 1334هـ القاهرة، 508/1

ويشرح ابن القيم كلام الهروي هذا بقوله : "وأما تضييع الأيام فنوعان أيضا، بخلوها من الطاعات وتضييعها بخلوها من مواجيد الإيمان وذوق حلاوته والأنس بالله وحسن المحبة معه"[1]

وعلى الجملة فان الزمن يتجاذبه طرفان: الأزل والأبد تتوسطهما أزمنة المقيد، وهي أزمنة إنسانية جزئية موزعة على الماضي والمستقبل بينهما لحظة الحاضر"الآن".

ولما كانت النفس يتبدل حالها من حال إلى حال من حال البسط إلى حال القبض، ومن حال الرضا إلى حال السخط، ومن حال الشكوى إلى حال السلوى، كانت أيضا حركة الزمن تتغير تبعا لذلك سعة وضيقا طولا وقصرا، وكان لكل ذلك أثر على الساحة النفسية، بحيث تدخل على الزمن الخارجي تغييرا واضحا نشعر به حينا وقد لا نشعر به أحيانا بل نشعر بحالة وكأن الزمن قد توقف.

لقد غدت النصوص الشعرية تعضد هذا المعنى وازدحمت بمفردات الزمن وتنوعت فيها الأزمنة غير أنها لا تكاد تخضع لمعطيات الزمن الخارجي، بل أضحت نهبا للزمن المتناهي في القصر نتيجة الأنس بالمشاهدة وغدا الزمن كأنه قد تغير مجراه.

لقد نظر الصوفية إلى زمن الناس هذا من علو فاستصغروه بالقياس إلى الأبد الواسع اللامتناهي الذي تغرق فيه جميع الأزمنة وتتلاشى فيه الأعمار. زمن ألجأهم إلى استرجاع الماضي السحيق ليصبح جزءا من الحاضر عبر الاستبطان والتأمل الداخلي عبر محفزات الذاكرة والمناجاة الذاتية، يقول الشاعر في رصد هذه الحالة:

---

1. المصدر نفسه، 508/1

يــا طللا عند الأُثيــل دارســا لاعبــتْ فيه خُــرّدا أوانســا[1]

بالأمس كان مُؤنسا وضاحكا واليوم أضحى مُوحشا وعابسا

كنى بالأمس عن الزمان الماضي عالم البقاء من غير استمرار الزمان، زمن كانت ترفل فيه النفس في ابتهاج وسرور، فلما ردت إلى حالة الإحساس والمشاهدة عالم الضيق والحرج وفراق تلك الفسحات أخذته الوحشة لتلك الفرقة[2].

إنه الماضي المطلق في حالة صراع مع اللحظة العابرة، بوصف الإنسان كائنا عابرا يتوخى من خلال التجاوب النفسي مع المطلق التحلل من انسيابية الزمن الموضوعي والانخراط في البعد اللازمني، مع تحويل لحظة التجاذب بين المطلق والمقيد إلى ذكرى والذكرى إلى التحام بالأبدي يقول ابن عربي في هذا المعنى:

فقلت لهــا: بلّغ إليــه بــأنّه هو الموقد النّار التي داخل القلــب[3]

فإن كان إطفاءٌ، فوصــل مخلّد وإن كان إحراق، فلا ذنب للصّب

درج ابن عربي على استرجاع الماضي المطلق في العديد من المقاطع الشعرية في ديوانه "ترجمان الأشواق"، و هذا من خلال توظيفه للأفعال الماضية التي تطغى على مجمل قصائده[4].

كما عمد تارة أخرى إلى أسلوب الحوار الداخلي لاسترجاع الماضي متخذا من ذاته مسرحا لهذا الحوار حيث يجريه بينه وبين نفسه، ويتميز هذا الحوار الفني بالإثارة من كونه يجرد نفسه ويباعد بينهما وبين الواقع والمثل العليا، بهدف التأثير في النفس من ناحيتين: الأولى إظهار القصور والثانية إثارة الطموح.

---

1. ابن عربي ترجمان الأشواق، دار صادر بــيروت، ص، 1966، ص، 75 ـ **2.** المصــدر نفســه الحاشية، ص،76- 75 ـ **3.** المصدر نفسه،ص،56 ـ **4.** حسب مسح إحصائي قمنا به لتقصي دلالة مفردات الزمن في الديوان.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحوار يمتد ليشمل عدة مستويات من الخطاب في آن واحد كأن يكون في صيغة المخاطب حينا، وفي صيغة المتكلم حينا آخر وفي صيغة الغائب تارة أخرى.

إن هذا الخطاب الذي يجريه في مستويات مختلفة وذاك الحوار الذي يقيمه بينها قد لا يعني به أحدا بقدر ما يعني به نفسه.

لقد وجد فيه الشاعر متنفسا كأن يخاطب نفسه أو ينكفئ إلى نفسه فيهمس إلى كل قوى بما يناسبها.

إن الأحداث التي تجري داخل الذات الصوفية يحاول الشاعر عكسها على مرآة الواقع فيصبح ما يجري خارج الذات شبيها بما يحدث داخلها، ومن هنا يمكن أن نفهم الذاتي من خلال الموضوعي.

إن ترك التفكير في الماضي والمستقبل المقيدين هو حيلة لطيفة لتكثيف الشعور باللحظة الحاضرة وتحرير النفس من قيود الزمن الموضوعي. إنها نظرة تطيح بالزمن المتعارف عليه في سبيل تأسيس مفهوم مغاير للزمان.

إنه يستثني اللحظة الحاضرة من الزمن ويؤسس بالمقابل لزمن إبداعي حر يمجد الحضور واقتناص اللحظة الهاربة.

وإذا كان يطبق الاسترجاع في العديد من المواضع في ديوانه هذا من خلال تجسيد الأفعال الماضوية فانه أيضا يوظف عنصر الاستباق، والاستباق هو تصوير لحدث لم يقع بعد فهو في حالة ترقب وانتظار وتوجس من الآتي يقول ابن عربي:

والله ما خفت المنون و إنـــما خوفي أموت فلا أراها في غـــد[1]

والخوف هنا ناتج عن حجب تحجبه عن مشاهدة التجلي الجلالي يوم القيامة في إشارة إلى قوله تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]

1. ابن عربي ترجمان الأشواق، ص 94 ـ 2. سورة القيامة الآية، 23،22.

فهو يستبق الأحداث طالبا من القوى الإلهية والبواغي الربانية إزاحة ولو الاستباق يكون دائما بالأفعال المضارعة وهي رؤية مستقبلية.

وجدير بالذكر أن الاستباق كان لديه أقل ورودا من الاسترجاع في الديوان فهو ينتقل من الماضي إلى المستقبل دون تمييز هدفه خلخلة الزمن الطبيعي.

إن هذا الاعتقاد يعطي فكرة الرضا بالحاضر والتسليم بما هو حاصل دون التفكير في أفق الانشغال بما هو آت أو التحسر على ماض فات.